مهمة الشعر: الأسس النفسية والمعرفية

طبيعة الشعر ووظيفته مرتبطان في فكر الفلاسفة الإسلاميين، ذلك أن مصطلح (تخييل) الذي يحدد ماهية الشعر لديهم يكشف عن الوظيفة بقدر ما يكشف عن الطبيعة، بل يبدو أن تصور طبيعة الشعر في أذهان هؤلاء لم يمر إلا عبر تصور الغاية. فوظيفة التخييل يمكن أن تحدد انطلاقا من قدرة التخييل على إيقاع المحاكيات في أذهان المستمعين ليوحي بوقفة سلوكية معينة، لكن هذه الوظيفة لا تتم إلا عبر انفعال النفس بالتخيير، واستسلامها التام لطبيعة الصور المحاكاة وما يرفدها من إيقاع باعتبار أن المخيلات متمايزة عن غيرها من ألوان المعرفة انطلاقا من خواصها الجمالية، وهذا شق الطبيعة في فهم المصطلح.

ولكن هذا لا يمنع من إمكانية تتبع التصور الغائي للشعر حسب رأي الفلاسفة، إذ أكد هؤلاء أن: «الغرض المقصود بالأقاويل المخيلة أن تنهض بالسامع نحو فعل الشيء الذي خيل له فيه أمر ما (من طلب له، أو هرب عنه، ومن نزاع أو كراهة له، أو غير ذلك من الأفعال من إساءة أو إحسان)، سواء صدق ما يخيل إليه من ذلك أم لا، كان الأمر في الحقيقة على ما خيل أو لم يكن»[1].

والحق أن الفلاسفة الإسلاميين أدركوا الأساس السيكولوجي الذي تقوم عليه طبيعة الشعر ووظيفته في آن، وتتبعوا المراحل النفسية التي تمر عليها الإثارة الشعرية، والدراسات النفسية التي أخذوها من أرسطو هي التي ساعدتهم على تأسيس بحثهم الوظيفة في الشعر على طبيعة النفس. فلقد قسم الفلاسفة الإسلاميون النفس إلى قوى وملكات، فإذا كانت قوى الحس والتخيل والعقل تمثل أسس التصور الفلسفي لنظرية المعرفة، فبواسطة الحس يتأتى إدراك المحسوسات ما دامت مرتبطة بعادتها، ويتسنى للعقل أن يجرد الماهيات أو الكليات من المحسوسات المدركة أفرادا. ووسطهما الخيال أو المخيلة، وهي قوة يمكنها إحضار المحسوسات المدركة بعد غيبة طينتها، فطبيعتها تمكنها من تصور المحسوسات دون أن تنظر إلى تصورها في علائقها المادية. فهي تجردها نوعا من التجريد. فإذا كانت هذه قوى الإدراك، فإن الإدراك ينتج عنه سلوك ما، قد يكون هذا الإدراك عقليا أو حسيا أو تخييليا، والأخير هو المقصود ببحثنا في الشعر.

وقد لخص الدارسون مراحل الإثارة الشعرية؛ إذ يرى الدكتور زكي نجيب محمود أن: «مؤدى هذا المذهب الفارابي هو أن الغاية التي يحققها الشعر هي أن يوحي لقارئه بوقفة سلوكية يريدها له الشاعر لا

بالقول المباشر، بل برسم صورة يكون بينها وبين السلوك المرتجى علاقة الإثارة الموحية، ولو صدق هذا المذهب لكانت لنا به ثلاثة معايير يكمل بعضها بعضا، نستطيع بها أن نميز جيد الشعر من رديئه: أولها: أن ترسم القصيدة صورة أو صورا تتكامل أجزاؤها بحيث يمكن تصورها. وثانيها: أن يكون للصورة المرسومة من قوى التداعي ما تستجلب به إلى الذهن شبيها لها من الخبرة المكنونة عند قارئها. وثالثها: أن تكون الصورة المستدعاة حافزا لصاحبها على اصطناع وجهة للنظر، ينظر بها إلى العالم فيصطبغ بها سلوكه على وجه الإجمال»[2].